الفصل السادس

في تفضيل الأنبياء على الملائكة

قال: وَلِلنَّبِيِّينَ رُجْحَانٌ عَلَى مَلَكٍ   تَعْلِيمِ عِلْمٍ وَتَكْرِيمٍ يَدُلاَّنِ

أقول : ذكر في المواقف[1] أنه لا نزاع في أن الأنبياء أفضل من الملائكة السفلية الأرضية وإنما النزاع في الملائكة العلوية السماوية . فقال أكثر أصحابنا الأنبياء أفضل منهم[2] أيضا وعليه الشيعة وأكثر أهل الملل . وقالت المعتزلة[3] وأبو عبد الله الحليمي[4] والقاضي أبو بكر[5] منا الملائكة أفضل منهم ، وعليه الفلاسفة .

---

(١) شرح المواقف : ٣٠٩/٨ ولكن الإمام الأشعري لم يفصل كما فصل صاحب المواقف بل الذي يفهم من كلامه الإطلاق فينبغي البحث عن أصل هذا الكلام الذي قاله صاحب المواقف . انظر مقالات الإسلاميين: ١٢٦/٢ ، ١٢٧ . وانظر أيضا في هذا الموضوع أصول الدين للبغدادي: ١٦٦، ١٦٧، ٢٩٥، ٢٩٦، الأربعين للرازي : ١٧٧/٢-١٩٨، طوالع الأنوار للبيضاوي : ٣٢٥-٣٢٧، شرح المقاصد للسعد: ٣١٨/٣-٣٢٥ ، شرح العقائد له: ٢٠٩/١ ، ٢١٠ .

(٢) ز: بدون (منهم) ، أول ق ٥٢ في أ .

(٣) انظر رأي المعتزلة في مقالات الإسلاميين: ٢٩٦/١ ، ١٢٦/٢ ، ١٢٧ . وابن حزم الظاهري أيضا يرى أن الملائكة أفضل من الأنبياء . انظر كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٦٥/٢ ، ٦٦ .

(٤) هو أبو عبد الله الحسين بن الحسين بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني ولد عام ٣٣٨ هـ وتوفي عام ٤٠٣ هـ فقيه وقاض كان رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر مولده بجرجان ووفاته ببخارى له المنهج في شعب الإيمان . انظر وفيات الأعيان : ١/ ٤٠٣ ، الأعلام : ٢٣٥/٢ ، التاج المكل للقنوجي : ٤١ ، ٤٢ .

(٥) «يمكن حمله على غير نبينا ﷺ» كما نقل ابن حجر الهيتمي عن البلقيني . انظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي: ٢٥٥ . أما الباجوري فقد استثناه ﷺ - من خلافهم - على وجه القطع فقال: «ذهب القاضي أبو عبد الله الحليمي . . . إلى أن الملائكة أفضل من الأنبياء إلا نبينا» . انظر شرح الباجوري على الجوهرة : ٢١٦ .

لنا وجوه . الأول : أنهم أُمِروا بالسجود[1] لآدم سجود تعظيم وتكريم كما يدل عليه قول إبليس ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (الإسراء:٦٢) و ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ (الأعراف:١٢) [2] والذي يقتضيه العقل والحكمة هو الأمر بتعظيم المفضول للأفضل لا عكسه ، ويرد عليه أنه[3] إنما يدل على كونه أفضل منهم في وجه في وقت ، والمدعي كونه أفضل منهم مطلقا في كل الأوقات .

والثاني : ما أشار إليه المحقق أولا وهو أن الله تعالى علَّم آدم عليه السلام من[4] الأسماء ما لا يعلمها الملائكة ، والعالم أفضل من غيره لقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (المجادلة:١١) وقوله تعالى ﴿ قُلْ [5] هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) ويرد عليه أن فيهم من هو عالم بجميع الشرائع النبوية لكونه واسطة فيما بين الله تعالى وأنبيائه بل بشرائع الملكوت وتكاليفهم أيضا فلا يعارضه علم آدم عليه السلام بالأسماء في وقت السؤال كيف وقد علموا بذلك أيضا فيما بعد[6] . فإن قلت : هو معلم والملائكة متعلمون والمعلم أفضل من المتعلم . قلت : لا نزاع في أنه أفضل منهم في هذا الوجه ، وأما النزاع في الأفضلية من كل الوجوه .

والثالث : ما أشار إليه ثانيا وهو قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾(الإسراء:٧٠) فإن التكريم المطلق لواحد من الأجناس يدل على أفضليته من غيره . فإن قلت : التكريم لا يوجب التفضيل سيما مع قوله ﴿ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء:٧٠) فإنه يشعر بعدم التفضيل على القليل الذي هو الملك إجماعا على أنه قد وصفهم في كلامه أيضا بأنهم عباد مكرمون . قلت : صيغة التفضيل للتكثير والمبالغة فالمعنى كرمنا بني آدم زيادة تكريم وفضلناهم على كثير (ممن خلقنا زيادة تفضيل ، فيفهم منه أفضليتهم على قليل)[7] من مخلوقاته وهو[8] الملائكة الكرام في الجملة .

---

(١) أول ق ٦١ في ز .
(٢) سورة الأعراف: ١٢ ، وسورة ص: ٧٦ .
(٣) أ ، ز: بدون (أنه) وفي ص: إنما بدلا من أنه .
(٤) ز: بدون (من) .
(٥) أ: بدون (قل) .
(٦) أ: بدون (بعد) .
(٧) ما بين القوسين ساقط من «ز» .
(٨) ز: وهم .

فإن قلت : الآية إنما تدل على أن جنس البشر أفضل من جنس الملك فيفهم منها كون جميع أفراد ذلك أفضل من جميع أفراد هذا والمدعي كون الأنبياء أفضل منهم فقط . قلت : ممنوع إذ قد خرج منها غير الأنبياء من أفراد البشر للأدلة الدالة على أن خواص الملك أفضل منهم فبقيت معمولة فيمن عداهم من الأنبياء فليتدبر .

الرابع : أن للبشر عوائقَ عن العبدات من الشهوة والغضب والحرص والوهم والخيال وحاجاته الشاغلة لأوقاته ولاشيء من ذلك يوجد في الملائكة فالعبادة معها تكون[1] أدخل[2] في الإخلاص وأشق ، فيكون صاحبها أكثر ثوابا عليها لقوله ﷺ « أفضل الأعمال أحمزها »[3] .

ورد بأن المعنى ما كان فيه زيادة مشقة من الأعمال الصادرة عن واحد فإنه أفضل من الصادر عن ذلك من مشقة زائدة ، إذ لا دليل على العموم في الأشخاص فضلا عن الأجناس وكيف لا والعموم يقتضي أن يكون العوام أفضل من الأنبياء والملائكة أيضا ، إذ لا شك أن تلك الصفات العائقة أزيد فيهم فيكون عبادتهم أفضل وثوابهم عليها أكثر ، ولو سلم ذلك في الأشخاص فلا نسلم[4] في الأجناس ، كيف وتلك الصفات هي الحجب القوية عن تجلي أنوار الله تعالى ، والعبادات إنما هي وسائل إلى نقض آثارها وقمع دواعيها ليتوصل إلى الاقتباس من الأنوار الربانية على ما أشار إليه الخليل صلوات الله عليه بقوله ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة:٢٦٠).

---

(١) أ: يكون .

(٢) ز: داخلا .

(٣) بسكون الحاء المهملة وبعد الميم زاي . بمعنى أشقها . ذكره لزمخشري في غريب الحديث: ٣١٩/١ ، وقد نقل السخاوي في المقاصد الحسنة صـ٦٩ عن الحافظ المزي قوله: هو من غرائب الأحاديث ، ولم يرو في كتب الحديث الستة ، وقل القاري في الموضوعات الكبرى: معناه صحيح لما في الصحيحين عن عائشة: إنما أجرك على قدر نصبك ، وهو في نهاية ابن الأثير مروي عن ابن عباس بلفظ « سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ، قال أحمزها». انظر كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني: ١٥٥/١ .

(٤) أول ق ٦٢ في ز .

وتحقيقه أن الإنسان جامع بين ما للملك من العقل الذي لا شهوة له وبين ما للبهيمة من الطبيعة التي لها شهوة[1] وغضب وغير ذلك فمن[2] غلب عليها طبيعته الحيوانية واستولى آثارها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا لتضييعهم بالكلية ما يقتضيه العقل من العلوم والحكم ، والقوة العقلية حينئذ بمنزلة الميت[3] ؛ لا أثر لها، ولهذا قد عبر عنهم الخليل بالموتى . ومن سخرها للقوة العقلية بحيث صارت منقادة لها متى شاءت بضرب من المجاهدة وأنواع العبادات أو لصفاء في جوهره فأولئك هم الذين يحيون بحياة الله ومشاهدة جماله وجلاله .

ثم إن مقتضى هذا التركيب أن لا ينمحي تلك الصفات بالكلية بل يبقى لها أثر في الجملة على ما أشار إليه ﷺ بقوله أنه أمر الخليل بذبح تلك[4] الطيور وإبقاء رأسها[5] عنده ولعل الله أيضا يشير إليه بقوله ﴿ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾ (البقرة: ٢٦٠) أي ضع على كل عنصر من العناصر الأربعة التي هي أركان البدن شيئا منها ، ولهذا قال ﷺ « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر[6] الله في اليوم والليلة سبعين مرة»[7] ولما كان تجرد الملائكة عنها بحسب فطرتهم لم يتصور هناك حجاب مانع أصلا ، فيستغرقون دائما في الأنوار الربانية، ويسبحون الليل والنهار وهم[8] لا يفترون. ومن هنا ظهر فساد ما قيل أن من غلبت[9] طبيعته عقله فهو أشر من البهائم وذلك يقتضي أن يكون من غلب طبيعته عقله خيرا من الملائكة .

---

(١) أول ق ٥٣ في أ . (٢) ز: ممن . (٣) أ: المبيت .

(٤) أ: ذلك . (٥) ز: رأسه . (٦) ز: أستغفر .

(٧) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار عن الأغر المزني : ٢٠٧٥/٤ ، رقم (٢٧٠٢) وأبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب الاستغفار ، عنه : ٨٤/٢ ، رقم (١٥١٥) وأحمد في مسنده ، في أول مسند الكوفيين ، عنه : ٢١١/٤. في جميع تلك الروايات « مائة مرة» بدلا من « سبعين مرة» . هذا وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبي ﷺ وهو معصوم عن الصغائر - على الأرجح - فضلا عن الكبائر ، وقد تعرض الإمام النووى والعسقلاني للإجابة عنه في شرح مسلم: ٢٣/١٧ وفتح الباري: ١٠١/١١ .

(٨) ز: بدون (وهم) . (٩) أ: غلب .

واحتج المخالف بوجوه منها قوله تعالى ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (النساء:١٧٢) فإنه يقتضي أن يكون الملائكة أفضل من المسيح لغة وعرفا فكذا من غيره إذ لا قائل بالفصل . والجواب ما حققه الإمام في الأربعين[١] من أن الفضل المختلف فيه في هذه المسألة هو كثرة الثواب وهي لا تحصل[٢] إلا بنهاية التواضع والخصوع وكون العبد بنهاية التواضع لله تعالى لا يلايم[٣] صيرورته مستنكفا من عبودية الله تعالى بل يناقضها وينافيها ، فامتنع أن يكون المراد من الآية هذا المعنى ، وأما اتصاف الشخص بالقدرة الشديدة والقوة الكاملة فإنه مناسب للتمرد وترك العبودية .

فالنصارى لما شاهدوا من المسيح إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص أخرجوه بهذا القدر[٤] من العبودية إلى الألوهية ، فقال الله تعالى إن عيسى لا يستنكف بسبب هذه القدرة عن عبوديتي ، ولا الملائكة المقربون الذين هم فوقه[٥] في القدرة والبطش (والاستيلاء على عالم السموات والأرض[٦] كما لا يخفي . فالآية إنما تدل[٧] على أن الملك أفضل من البشر في الشدة والقوة والقدرة والبطش)[٨] ، والكلام إنما هو في الأفضلية بمعنى كثرة[٩] الثواب عند الله . وقد يقال الداعي إلى تسميتهم المسيح إلها إنما هو حصوله من غير أب وهذا المعنى أقوى في الملك لحصوله بلا أب وأم أيضا مع أنهم لا يستنكفون عن عبودية الله فضلا عن عيسى عليه السلام .

---

(١) انظر الأربعين للرازي: ١٨٢/٢ ، ١٨٣ .

(٢) أ: لا يحصل .

(٣) ز: لا ينايم .

(٤) أول ق ٦٣ في ز .

(٥) ز: فرتة .

(٦) وفي الأربعين (١٨٣/٢): والأرضين .

(٧ أ: فالآية لا تدل ، وما أثبته من «ص» .

(٨) ما بين القوسين ساقط من «ز» .

(٩) أ: كثير ، ز: كثر ، وما أثبته من «ص» .

وبذلك ظهر بطلان استدلالهم على ذلك بأن الملائكة قوية على تغيير الأجسام وتقليب الأجرام ، لايستثقلون حمل الأثقال ولا يستصعبون[1] نقل الجبال . فالرياح تهبُّ بتحريكاتها والسحاب يعرض ويزول بتصريفاتها والزلازل تتكون[2] بقوتها والآثار العلوية تحدث[3] بمعونتها كما نطق به الكتاب الكريم والقرآن العظيم حيث قال ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ (الذاريات:٤) ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ (النازعات:٥) وكذا استدلالهم بقوله تعالى ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ (الأنبياء:١٩) .

ووجه الاستدلال أن الله تعالى احتج بعدم استكبار[4] الملائكة عن عبادته على أن البشر يجب أن لايستكبروا[5] عنها[6] ولو كان[7] البشر أفضل منها لما تم هذا الاحتجاج فإن السلاطين إذا أرادوا تقرير وجوب طاعتهم على رعيتهم يقولون الملوك لا يستكبرون عن طاعتي فكيف هؤلاء المساكين . وأما استدلالهم بالعندية فضعيف أيضا لورود مثل ذلك في حق البشر قال الله تعالى ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر:٥٥) وقال ﷺ حكاية عنه «أنا عند المنكسرة قلوبهم»[8] بل هو أقوى كما لا يخفى .

ومنها أن من الملائكة من هو رسول إلى الأنبياء والرسول أفضل من أمته . ورد بأن السلطان قد يرسل واحدا إلى جمع عظيم ليكون متوليا لأمورهم وحاكما عليهم وذلك الشخص يكون أفضل منهم وأما إذا أرسل شخصا واحدا إلى واحد للإعلام كما

---

(١) ز: ولا يستضعفون .
(٢) أ: يتكون .
(٣) أ ، ز: يحدث .
(٤) أ: استكار .
(٥ أ: أن لا يستكبر ولا غيرها ولو .
(٦) أ: بدون (عنها) .
(٧) أول ق ٥٤ في أ .
(٨) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء في ترجمة عمران القصير: ١٧٧/٦ ، عن عمران القصير؛ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أين أبغيك قال أبغني عند المنكسرة قلوبهم فإني أدنو منهم كل يوم باعا لولا ذلك لانعدموا» ، وعزاه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: ٢٩٠/٦ إلى أبي نعيم في الحلية ، وقال الزبيدي: كأنه من الإسرائيليات .

إذا أرسل واحدا من عبيده إلى وزيره فالظاهر أن المرسل إليه أجل منه قدرا وأعلى مرتبة والرسول كواحد من خدامه . ومنها قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ:٣٨) فإن المقصود من شرح هذه الواقعة بيان عظمته على وجه أبلغ ، ولو كان في الخلق طائفة قيامهم بين يدي الله تعالى وتضرعهم في حضرته أقوى من الأنبياء عن عظمته وكبريائه من الملائكة لكان ذكرهم في مثل هذا المقام أولى ، وقد مر منا ما يمكن التفصي عن مثله فتذكر . ثم الإنصاف أن الأفضلية بمعنى زيادة القدرة والقوة والبطش ظاهرة في الملائكة وأما الأفضلية بمعنى كثرة الثواب عند الله[1] فعلمها عنده ولا طريق لنا إلى الجزم بها فليتدبر .

* * *

(١) أ: بدون (عند الله) .